أ. د/ محمد إبراهيم العشماوي
أستاذ الحديث الشريف وعلومه
جامعة الأزهر

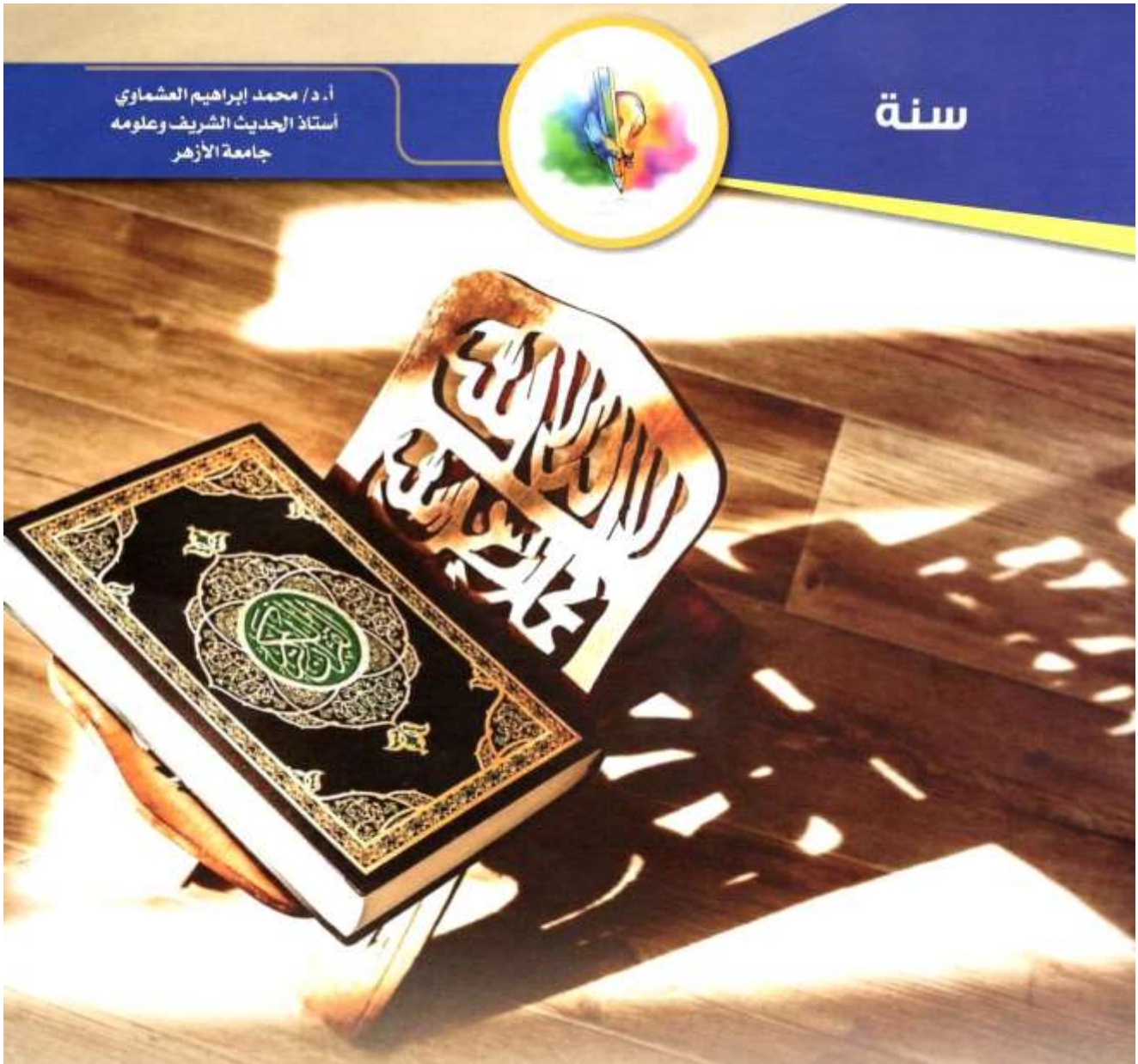

مواجهة الوباء في السنة النبوية!

الحفاظ على النفس الإنسانية، ودفع الأخطار عنها، ووقايتها من أسباب الهلاك؛ أحد مقاصد الإسلام الكبرى، وكلياته العظمى، التي من أجلها شرعت الشرائع، وسنت الأحكام.

ومن الأخطار التي تتعرض لها النفس الإنسانية، وتهدد وجودها وبقاءها؛ الأمراض والأوبئة، لاسيما الفتاكة منها؛ إذ هي مظنة الهلاك، وذلك كالوباء العام الذي يجتاح العالم الآن، وهو فيروس كورونا، المصطلح عليه علميا باسم (كوفيد-١٩)، والذي راح ضحيته مئات الآلاف حول العالم، وأصيب به ملايين.

ولأن الإسلام دين جامع شامل لخيري الدنيا والآخرة، صالح

لكل زمان ومكان؛ فإنه وضع منهجا عاما للتعامل مع الوباء، أيا كان نوعه، أو صفته، أو زمانه، أو مكانه!

وهذا ما سجلته شهادات غربية غير إسلامية، لباحثين ومفكرين وكتاب -حسبما نشرته بعض المواقع الإخبارية والدوائر المعرفية- إذ أشادوا في شهادتهم تلك بتعاليم الإسلام الوقائية والعلاجية في مواجهة الوباء، وسبقه في هذا الميدان كل النظم، وبأن العالم كله رجع إلى تلك التعاليم!

ففي تقرير للباحث الأميركي كريج كونسيدين نشر في ٢١ مارس ٢٠٢٠م، بمجلة «نيوزويك»[1]، نقل فيه عن الدكتور أنتوني فوسي عالم المناعة، والدكتور سانجاي جوبتا المراسل الطبي؛ قولهما: «إن التزام النظافة الصحية، والحجر الصحي، أو ممارسة العزل الاجتماعي عن الآخرين؛ أملا في الحيلولة دون انتشار الأمراض المعدية، يعد أكثر التدابير فاعلية لاحتواء تفشي وباء فيروس كورونا المستجد».

وطرح كونسيدين، الذي صدر له مؤلفان تناول فيهما الإسلام، سؤالا حاول الإجابة عنه، قائلا: «هل تعلمون من الذي أوصى بالتزام النظافة والحجر الصحي الجديد في أثناء تفشي الأوبئة؟»، فأجاب قائلا: «نبي الإسلام محمد، قبل ١٤٠٠ عام».

ورأى الكاتب أنه «على الرغم من أن نبي الإسلام ليس بأي حال من الأحوال، خبيرا تقليديا بالمسائل المتعلقة بالأمراض الفتاكة، فإنه كانت لديه نصيحة جيدة لمنع ومكافحة تطور الأوبئة مثل فيروس كورونا المستجد».

ويقول: «إن النبي محمدا قد أوصى بعزل المصابين بالأمراض المعدية عن الأصحاء، وحث البشر على التزام عادات يومية للنظافة قادرة على حمايتهم من العدوى، مستعرضا عددا من الأحاديث النبوية المتعلقة بالنظافة».

وما جاء في هذا التقرير هو تلخيص لمنهج السنة النبوية في مواجهة الوباء، يمكننا شرحه بإيجاز في عدة نقاط.

أولا: أن منهج السنة النبوية في مواجهة الوباء؛ يختلف عن غيره من المناهج؛ لأنه يعتمد على نوعين من التدابير: التدابير الروحية، والتدابير المادية.

ثانيا: أن التدابير الروحية تعني أن هذا الدين -أعني الإسلام- دين يؤمن بأن لهذا العالم مدبرا حكيما يدبر شؤونه، وأن ما يجري في هذا العالم من الأوبئة؛ جزء من تدبيره المحكم، فلا بد من اللجوء إليه، والاعتماد عليه، والتضرع له، والاحتماء به؛ لرفع هذا الوباء، فهو وحده القادر على رفعه، وهو الذي يلهم الإنسان العلم والمعرفة لمواجهته، ومن هنا كان العلم في الإسلام مرتبطا باسم الله، ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق:١).

على أن هذه التدابير الروحية نوع من العلاج؛ إذ العلاج نوعان: مادي وروحي؛ لأن الإنسان شيئان: مادة وروح، بل علاج الروح مقدم على علاج البدن، والمرء أحوج إليه من علاج البدن؛ لتوقف كثير من الأمراض البدنية عليه!

ومن تلك التدابير الروحية التي جاءت بها السنة النبوية، لمواجهة الوباء؛ تقوية الإيمان، واليقين، والصبر، والرضا، والتوكل، والثقة بالله عزوجل، والتضرع إليه بالتوبة، والإنابة، والذكر، والابتهال، والدعاء، والاستغفار، والصلاة، والصدقة، وقراءة القرآن، وسائر أنواع الطاعات، فإنها علاج للروح، وتقوية لها؛ لتصمد في مواجهة الأزمات والشدائد، وإذا قويت الروح؛ قويت مناعة الجسد، فاندفعت عنه الأمراض، وتنحت عنه الأعراض!

يقول الإمام ابن القيم في (الطب النبوي)[2] عن هذا النوع من العلاج الروحي: إنه «يستنزل بذلك من الأرواح الملكية ما يقهر هذه الأرواح الخبيثة، ويبطل شرها، ويدفع تأثيرها.. وهذا يكون قبل استحكامها وتمكنها، ولا يكاد ينخرم، فمن وفقه الله؛ بادر عند إحساسه بأسباب الشر إلى هذه الأسباب التي تدفعها عنه، وهي له من أنفع الدواء، وإذا أراد الله عزوجل إنفاذ قضائه وقدره، أغفل قلب العبد عن معرفتها وتصورها وإرادتها، فلا يشعر بها ولا يريدها، ليقضي الله فيه أمرا كان مفعولا».

وقد ثبت في (الصحيح)[3] أن الصحابة رضي الله عنهم رقوا رجلا لدغته حية، بفاتحة الكتاب، فبرئ بإذن الله! فدل ذلك على

أن العلاج الروحي ينفع في إبطال أثر السم، كما ينفع في دفع أثر العين والسحر الذي يبطل منافع بعض الأعضاء!

ومن جملة التدابير الروحية لمواجهة الوباء؛ تسلية النفس بمعرفة أن الوباء من جملة البلاء، وأن في البلاء خيرا للعبد على كل حال، ما دام صابرا محتسبا، فإن عاش فله أجر الصبر على المرض، وإن مات فله أجر الشهادة، وفي الحديث: «الطاعون شهادة لكل مسلم»[٤].

ثالثا: أما التدابير المادية التي جاءت بها السنة النبوية، لمواجهة الوباء؛ فهي نوع آخر من المواجهة، لكنه يسير في خطين متوازيين: خط الوقاية، وخط العلاج.

فأما الوقاية فلا يخفاك أن الطب الوقائي نوع من الطب، وأن توقي الإنسان مما يؤذيه في العاجل والآجل؛ مما أمر الله ورسوله ﷺ به، وقد أرسى القرآن مبدأ الوقاية من أسباب الهلاك في آية محكمة، يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ (البقرة:١٩٥)، وأكد النبي ﷺ على هذا المبدأ بقوله: «لا ضرر ولا ضرار»[٥]. أي: لا يعرض الإنسان نفسه للضرر، ولا يعرض الآخرين له، وهذا معنى جديد للوقاية، لا يقتصر على وقاية الإنسان نفسه فحسب من الضرر، بل يدعوه إلى وقاية الآخرين أيضا، وعدم الإضرار بهم!

ومن أجل هذا نهت السنة النبوية عن الدخول في أرض الطاعون أو الخروج منها؛ لينحصر المرض، ولا يستشري، فيما يسمى بالحجر الصحي الآن!

ففي الحديث الصحيح: «إذا سمعتم بالطاعون بأرض؛ فلا تدخلوها، وإذا وقع وأنتم بأرض فلا تخرجوا منها، فرارا منه»[٦].

وقد ذكر الإمام ابن القيم، الحكم الطبية من هذا النهي النبوي، والذي ثبت إعجازه في عصر العلم!

يقول ابن القيم في (الطب النبوي)[٧] -وكأنه يتكلم بلسان الأطباء في عصرنا-: «وأما نهيه عن الخروج من بلده، ففيه معنيان:

أحدهما: حمل النفوس على الثقة بالله، والتوكل عليه، والصبر على أقضيته، والرضا بها.

والثاني: ما قاله أئمة الطب: أنه يجب على كل محترز من الوباء أن يخرج عن بدنه الرطوبات الفضلية، ويقلل الغذاء، ويميل إلى التدبير المجفف من كل وجه، إلا الرياضة والحمام، فإنهما مما يجب أن يحذرا، لأن البدن لا يخلو غالبا من فضل رديء كامن فيه، فتثيره الرياضة والحمام، ويخلطانه بالكيموس الجيد، وذلك يجلب علة عظيمة، بل يجب عند وقوع الطاعون السكون والدعة، وتسكين هيجان الأخلاط، ولا يمكن الخروج من أرض الوباء والسفر منها إلا بحركة شديدة، وهي مضرة جدا، هذا كلام أفضل الأطباء المتأخرين، فظهر المعنى الطبي من الحديث النبوي، وما فيه من علاج القلب والبدن وصلاحهما.

فإن قيل: ففي قول النبي ﷺ: «لا تخرجوا فرارا منه»: ما يبطل أن يكون أراد هذا المعنى الذي ذكرتموه، وأنه لا يمنع الخروج لعارض، ولا يحبس مسافرا عن سفره؟ قيل: لم يقل أحد، طبيب ولا غيره، إن الناس يتركون حركاتهم عند الطواعين، ويصيرون بمنزلة الجمادات، وإنما ينبغي فيه التقلل من الحركة بحسب الإمكان، والفار منه لا موجب لحركته إلا مجرد الفرار منه، ودعته وسكونه أنفع لقلبه وبدنه، وأقرب إلى توكله على الله تعالى، واستسلامه لقضائه.

وأما من لا يستغني عن الحركة، كالصناع، والأجراء، والمسافرين، والبرد، وغيرهم، فلا يقال لهم: اتركوا حركاتكم جملة، وإن أمروا أن يتركوا منها ما لا حاجة لهم إليه، كحركة المسافر فارا منه.

وفي المنع من الدخول إلى الأرض التي قد وقع بها؛ عدة حكم:

أحدها: تجنب الأسباب المؤذية، والبعد منها.

الثاني: الأخذ بالعافية التي هي مادة المعاش والمعاد.

الثالث: ألا يستنشقوا الهواء الذي قد عفن وفسد، فيمرضون.

الرابع: ألا يجاوروا المرضى الذين قد مرضوا بذلك، فيحصل لهم بمجاورتهم من جنس أمراضهم.

وفي (سنن أبي داود) مرفوعا[٨]: «إن من القرف التلف». قال ابن قتيبة: «القرف مداناة الوباء، ومداناة المرضى».

الخامس: حمية النفوس عن الطيرة -التشاؤم- والعدوى؛ فإنها تتأثر بهما؛ فإن الطيرة على من تطير بها.

وبالجملة: ففي النهي عن الدخول في أرضه؛ الأمر بالحذر والحمية، والنهي عن التعرض لأسباب التلف.

وفي النهي عن الفرار منه؛ الأمر بالتوكل، والتسليم، والتفويض، فالأول: تأديب وتعليم، والثاني: تفويض وتسليم.

ومن التدابير الوقائية أيضا لمواجهة الوباء؛ ألا يخالط الصحيح المريض؛ لقوله ﷺ: «لا يورد ممرض على مصح»[9]، وقوله: «فر من المجذوم فرارك من الأسد»[10].

وهذا ما يمكن تسميته بالعزل المنزلي الآن، وينسحب أيضا على التباعد الاجتماعي!

ومنها أيضا العناية بالنظافة العامة والخاصة، وحسبك من هذا الدين أن اعتبر «الطهور شطر الإيمان»، وهو شامل للطهارة الحسية والمعنوية!

وقد حثت السنة النبوية على التزام النظافة الشخصية فيما يسمى بسنن الفطرة، وهي الختان، والاستحداد (حلق العانة)، ونتف الإبط، وقص الشارب، وتقليم الأظافر.

وهذه المناطق من أكثر مناطق الجسم التي تتجمع فيها الميكروبات والجراثيم، وتكون سببا في وقوع الأمراض.

كما دعت السنة النبوية إلى الاهتمام بطهارة البدن، فأوصت بتنظيف الفم والأسنان بالسواك ونحوه، وأمرت بالاستنجاء من الغائط، والاستبراء من البول، والوضوء للصلاة، واستحبته في كل وقت، وأمرت بالاغتسال من الجنابة والحيض والنفاس -وكل هذا أذى- ودعت إلى نظافة الثوب والمكان، حتى يعيش الإنسان في بيئة نظيفة آمنة، فقد نهى النبي ﷺ عن البول في الماء الراكد، والبراز في موارد الناس وظلهم، وأمر بإماطة الأذى عن طريق الناس.

ومن جملة التدابير الوقائية تحريم بعض أنواع اللحوم التي تسبب بعض الأمراض، كلحم كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير، وحثها على طريقة صحية لذبح الحيوان تستخرج ما فيه من المادة الفاسدة، بإراقة الدم، ودعوتها إلى تغطية أواني الطعام والشراب، وعدم تركها مكشوفة، ونهيها عن الأكل متكئا لما فيه من الضرر، ووصيتها ببعض أنواع الطعام لما فيها من الفوائد الصحية كالتمر وزيت الزيتون، وإرشادها إلى عدم الإسراف في الطعام والشراب.

وأما التدابير العلاجية؛ فقد دعت السنة النبوية إلى التداوي بكل أنواع الدواء المباحة، واستنهضت همم العلماء إلى اختراع الأدوية؛ إذ بينت أنه لا يوجد على وجه الأرض داء إلا خلق الله له دواء، علمه من علمه، وجهله من جهله، وهذا مما يفتح أبواب الأمل أمام من ابتلوا بالأمراض المعضلة التي استعصت في يوم من الأيام على العلاج، وإعجاز نبوي في عالم الطب، ففي الحديث: «يا عباد الله، تداووا، فإن الله -عزوجل- لم يضع داء إلا وضع له دواء (شفاء)، غير داء واحد، قالوا: وما هو؟ قال: الهرم»[11] أي: الشيخوخة وكبر السن.

ومن جملة التدابير العلاجية: الحجر الصحي، والعزل المنزلي، وقد سبقت الإشارة إليه، فهو وقاية لقوم، وعلاج لآخرين!

وبعد: فهذه نبذة عن الأسباب الروحية والمادية، لمواجهة الوباء، في السنة النبوية، أرجو أن أكون قد وفقت في عرضها على نحو يسر الخاطر، ويبعث الأمل، وبالله التوفيق.

الهوامش

1- https://ajel.sa/mhQpcg/.

٢- الطب النبوي ص٣١ دار الأرقم بيروت.

٣- رواه البخاري في الطب، باب الرقية بفاتحة الكتاب من حديث أبي سعيد الخدري.

٤- رواه البخاري في الطب، باب ما يذكر في الطاعون، من حديث أنس بن مالك.

٥- رواه ابن ماجه والدارقطني وغيرهما بإسناد حسن.

٦- متفق عليه من حديث أسامة ابن زيد.

٧- الطب النبوي ص٣٣.

٨- رواه أبو داوود في الطب، من حديث فروة بن مسيك.

٩- رواه مسلم في كتاب السلام، باب لا عدوى ولا طيرة.

١٠- رواه البخاري في الطب، باب الجذام.

١١- رواه أصحاب السنن الأربعة من حديث أسامة بن شريك.